أمر بعد ذلك بإحراقهما . وحافظ المقربون على سر أن الدوق كان على فراش الموت وإن كانت إشاعة مرضه قد انتشرت في الخارج ولم يكن في قدرة احد إخفاؤها . واخذ النبلاء يتوافدون على قولوك لامسكي . ووجدت هيلانة صعوبات كبيرة في إقناعهم بأن مرض زوجها لم يكن إلا وعكة بسيطة . ووصل يوري اخو ڤاسيلي الذي كان مرشحاً محتملاً للعرش ولم يكن في قدرة احد إرغامه على المغادرة كما بقي اندريه الأخ الأصغر للدوق الكبير .

وكانت فتحة الدمل الآن قد أخذت مظهراً مشؤوماً ووصل عرضها بحيث تستطيع أن تدخل فيها اليد . وكانوا يخرجون منها الصديد ملء اقداح ، ولكن الأمير بقي متمسكاً بالحياة واصدر اوامره بأن ينقل أولاً الى دير سان جوزيف ثم بعد ذلك الى موسكو . وحمله النبلاء على سريره ووضعوه في كنيسة الدير امام المذبح واجتمع حوله كثير من الحضور بما فيهم هيلانة وولداها وصيادون وجنود ونبلاء وكهنة سود في اضطراب كبير يصلون وينتحبون ويحسبون حساب المستقبل .

ومع ذلك فإن اجل ڤاسيلي قد طال زمناً غير معقول احتفظ فيه بصفاء ذهنه واستمر في إصدار الأوامر التي كان ينبغي إطاعتها . وكانت رغبته هي أن يعود الى قصره في الكريملين . ووجب على النبلاء أن يحملوه على محفة وينقلوه من جديد . وكانت بوادر الثلج قد بدات بالهطول . وعلى جبل العصافير وضع الأمير على زحافة تجرها خيول هادئة . وكان قد بنى جسراً جديداً على نهر الموسكڤا ليتمكن من دخول المدينة من مكان قليل الازدحام كي يكون بذلك بعيداً عن عيون الفضوليين . ولكن ما أن وضعت الخيول أقدامها على هذا الجسر الجديد حتى انكسر . وعلى الرغم من حوادث أخرى كثيرة جرت لڤاسيلي خلال رحلته الأخيرة هذه فإنه وصل سالماً في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر عام ١٥٣٣ الى بيته ضمن جدران الكريملين .